البناء اللغوي وتطبيقاته النحوية والصرفية عند علماء التفسير.

The Linguistic Structure and its Grammatical and Morphological Applications for the Scholars of Tafseer.

الباحث: عبد القادر سعيد رنان

إشراف: د. عاشور مزيلخ

كلية العلوم الإسلامية- جامعة الجزائر1

البريد الالكتروني: said.rennane@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/10/28 تاريخ القبول:2020/02/06 تاريخ النشر: 2020/06/17

ملخص

البناء اللغوي للقرآن هو القاعدة الأساسية في الإعجاز القرآني، وقد استخدم القرآن الكريم قواعد اللغة العربية وجعلها مطواعة لأغراضه ومقاصده وتراكيبه، ليضع منه نظما بديعا محكم بنيانه، مرصوص بنانه، ثم إن المفسرين لم يدخروا جهدا في محاولتهم الكشف عن أساليب البناء اللغوي في القرآن مبرزين معالم اهتمامهم باللغة العربية في تفسيرهم للقرآن الكريم، وبالأخص ما له علاقة بقضايا البناء اللغوي نحوًا وصرفًا، بلاغة ودلالة، فأكثرَ المفسرون من عرضهم للقضايا والتدليل عليها من آيات القرآن الكريم، موضحين في الوقت ذاته القواعد المبنية عليها، وسنحاول من خلال هذا المقال الإجابة عن مجموعة من الإشكالات أهمها: ما مدى أهمية البناء اللغوي عند المفسر، وإلى أي حد يستطيع المفسر الاستعانة بالتراكيب والأبنية اللغوية في القرآن؟

الكلمات المفتاحية: البناء اللغوي – التراكيب النحوية – النحو والصرف –التفسير

Summary:

Linguistic Structure in Quran is the basic norm in Quranic Inimitability. Holy Quran used the grammar of Arabic language and made it obedient to its meanings and structures, in order to make of it a solid, well-structured and outstanding prose. Interpreters did their best to unveil the styles if linguistic structure in Quran, showing the marks of their interest in Arabic language whilst interpreting the Holy Quran, especially all that is related to the issues of linguistic structure, grammatically and morphologically, rhetorically and semantically. Interpreters talked and pointed at a lot of topics from Holy Quran, explaining at the same time the rules based upon them. We will try in this article to answer a couple of questions, including: How important is linguistic structure to the interpreter, and to what extent the interpreter can use constructions and linguistic structures in Quran?

Key Words: ***Linguistic Structure – Grammatical Constructions – Grammar and Morphology – Interpretation.***

1. مقدمة:

اهتم العلماء المسلمون بالقرآن الكريم منذ ظهور الدراسات المتعلقة به اهتماما شديدا، وقد نبع هذا الاهتمام من تعلق المسلمين بكتاب ربهم، فقاموا عليه بحثا في أسراره، وتعمقا في معانيه وألفاظه، تفسيرا وبيانا، موضحين من خلاله كل ما تعلق بالقرآن وجوانبه، بنظم بيانه ورونق أساليبه، التي تعددت وتنوعت أشكالها وأحوالها، فالقرآن الكريم كتاب لا تنقضي أسراره، ولا تبلى أحكامه، لا يشبع منه العلماء، وهو

الكتاب الغني بكل أساليب اللغة العربية التي نزل بها، ولا يدرك قيمة هذه الأساليب إلا من نظر إلى البنية اللغوية نظرة فاحصة لكل مستوياتها؛ صوتا وحرفا وتركيبا، هذا الأمر أدى إلى إثراء المكتبة العربية بكتب التفسير التي تعنى بالناحية التركيبة للآيات القرآنية.

من المتفق عليه عند العلماء أن القرآن الكريم قد حظي بدراسات معمقة حول البناء اللغوي للآيات القرآنية، تجسدت في أن بعض هذه الدراسات قد اتخذت من أسلوب التفسير منهجا لها، فصار أصحابها ممن يعتني بالقرآن الكريم من الجانب اللغوي، مبرزين في ذلك تماسك الألفاظ والجمل وترابطها، مما أنتج لدينا ظهور اتجاه مسطر في تبني منهجية استخراج الظواهر اللغوية من القرآن الكريم، فظهر لدينا ارتباط وثيق بين القرآن الكريم واللغة العربية ولا غرابة في ذلك، حتى صارت اللغة العربية مطواعة للقرآن الكريم من حيث نمط الأساليب والأغراض والأشكال، يصيغها الكلام المعجِز كيفما يشاء، ويوظفها أنّى شاء، يختار من ألفاظها ومفرداتها الأنسب والأفضل، والباحث من خلال هذا المقال سيركز على اهتمام علماء التفسير بقضايا البناء اللغوي للقرآن الكريم.

وهذا البحث هو مساهمة بحثية من أجل الوقوف على جهود علماء التفسير في مدارستهم للغة العربية، انطلاقا من تفسيرهم للقرآن الكريم، ومدى استفادتهم من علوم اللغة العربية في خدمة القرآن الكريم.

وتظهر أهمية البحث من خلال أن للتراكيب اللغوية قدرة على استيعاب معاني الآيات القرآنية، وبخاصة إذا ما تمكن المفسر من استغلال طاقاته في الكشف عن هذه المعاني، كما تتجلى أهميته في إبراز مظاهر اللغة العربية وعناية القرآن بها رفعة للعلوم المتعلقة به، إذ من المعلوم أن شرف العلوم من شرف المعلوم.

ومما سبق نطرح الإشكال الآتي: إلى أي مدى يمكن للمفسر الاستعانة بالتراكيب والأبنية اللغوية في تفسير القرآن؟ وما مدى أهميتها عند المفسر؟ وهل استغلال البناء اللغوي في تفسير القرآن خدم كتاب الله تعالى؟

2. أهمية اللغة العربية عند المفسرين قديما وحديثا.

كان العرب قبل نزول القرآن يتكلمون بالسليقة، لا يحتاجون في نظم كلامهم إلى قواعد يسيرون عليها، أو إلى من يعلمهم طريقة الكلام، بل كانوا يتوارثونها فهما ونطقا، "وكان العرب قد بلغوا لعهد القرآن مبلغهم من تهذيب اللغة ومن كمال الفطرة ومن دقة الحسّ البياني حتى أوشكوا أن يصيروا في هذا المعنى قبيلا واحدا باجتماعهم على بلاغة الكلمة وفصاحة المنطق"[1]. ولما نزل القرآن الكريم باللغة العربية أضاء لها الأنوار، وفتح لها أفاق العلو والرفعة، وسمى بها على لغات العالم جميعا، فقُرنت العربية بالقرآن نطقا وفهما ومعنى، ولم يمر باللغة العربية حدث أعظم أثرا مثل الإسلام العظيم، ونزول القرآن على سيد المرسلين، لأنه جعلها لغة

ترغب فيها القبائل وتتنافس في فهمها العشائر، ويجتهد في نطقها العجم، لما لها من علاقة بتعاليم الإسلام، ومبانيه العظام، ولما يترتب عليها من أحكام مهمة، قال الطاهر بن عاشور: "وقد اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربي مظهرا لوحيه، ومستودعا لمراده، وأن يكون العرب هم المتلقين أولا لشرعه وإبلاغ مراده لحكمة علمها: منها كون لسانهم أفصح الألسن وأسهلها انتشارا، وأكثرها تحملا للمعاني مع إيجاز لفظه، ولتكون الأمة المتلقية للتشريع والناشرة له أمة قد سلمت من أفن الرأي عند المجادلة"[2]

ثم إن علماء التفسير اتخذوا من دراسة أسلوب القرآن منهجا في تفسيرهم، ويظهر ذلك جليا في بيانهم لآيات القرآن الكريم في كتبهم، وقد سبقهم في ذلك بيان الصحابة والتابعين له، فكانوا يجتهدون في إبراز وجوه إعجازه استنادا على ما تعارفوا عليه لغة، وقد بيّن بعض العلماء أن المعول عليهم في فهم القرآن هم أهله الذين نزل بين أظهرهم قال ابن تيمية: "وأما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعِكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاوس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل: زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضًا ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب"[3]، وفي بيان أن المدرسة المكية كانت السباقة في تبني منهج الاستعانة باللغة العربية في تفسير القرآن يقول محي الدين بلتاجي: "ثم كانت مدرسة مكة التي تنسب إليه، ومن تتلمذ له من أعلامها كمجاهد بن جبر، وعكرمة مولاه، و سعيد بن جبير أول من خطوا بالتفسير من دائرة المأثورات وحدها إلى دائرة الاستعانة بلسان العرب فيما لم تتعرض له المأثورات، فكانوا الممثلين الحقيقين لهذا الاتجاه خلال القرن الأول"[4]، بل إن بعض العلماء حكوا إجماع الصحابة على جواز تفسير القرآن باللغة[5]، وهذا إدراكا منهم لأهميتها في فهم القرآن، وجعلوا من شروط المفسر إلمامه باللغة العربية إلماما يحصل به المقصود عند تفسير للقرآن، ذكر مناع القطان في كتابه أن مشروط المفسر: "العلم باللغة العربية وفروعها: فإن القرآن نزل بلسان عربي، ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب"[6] ، والمعاني تختلف باختلاف الإعراب، ومن هنا مست الحاجة إلى اعتبار علم النحو. والتصريف الذي تُعرف به الأبنية، والكلمة المبهمة يتضح معناها بمصادرها ومشتقاتها. وخواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها." [7]، وزاد تأكيدا على أهمية اللغة بالنسبة للمفسر قول ابن فارس: " إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لا غناء بأحد منهم عنه، وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربي، فمن أردا معرفة ما في كتاب

الله جل وعز وما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلمة غريبة أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بدا"[8]

وتواترت عن السلف النقول في أهمية العناية باللغة العربية لمن أراد أن يغوص غمار التفسير، حتى أضحى التلازم بين القرآن وعلوم اللغة أمرا لا ينفذ إليه شك، ولا يحتاج إلى بيان وإيضاح، فهذا ابن عباس رضي الله عنه جعل من أقسام التفسير: "...علم تعرفه العرب من كلامها..."[9]، حتى إن الرعيل الأول لم يحتاجوا إلى سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن معاني ألفاظ القرآن، دراية باللغة وإحاطة بها وعلّق أبو عبيدة على هذا الأمر بقوله: " قالوا: إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وتصداق ذلك في آية من القرآن، وفي آية أخرى: «وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ» [إبراهيم: 4] ، فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلّى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما فى كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص. وفى القرآن مثل ما فى الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب، والمعاني، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر وفيه مضمر..."[10]، وزاد تأكيد أهمية اللغة عند المفسرين تقعيدهم للمسائل التي يضبط هذا العلم، وإيلاءهم لها اهتماما بالغا، "وقد تفاوتت جهود العلماء في مدى استغلالهم لهذا الثراء المكثف في ألفاظ اللغة ومعانيها، فلئن كان النحاة واللغويون قد اجتهدوا في الجمع والتقعيد، فإن غيرهم من علماء التفسير والفقه قد منحوا للغة العربية بُعدها الإجرائي الذي يعكس قابليتها للتطبيق عند التواصل بشتى أشكاله، وفي مستويات التعبير والإنشاء، ولعل البدايات الأولى لتلك الاهتمامات المبكرة نشأت عند علماء التفسير، الذين اتخذوا من القرآن مدونّة سعوا إلى شرح غامضها وتفسير معانيها، والبحث في تباين أوجه التأويل فيها [...] فعلماء التفسير في كل عصر من عصور الاجتهاد في هذا المجال لم تنغلق دونهم معاني النص الواحد الممثل في القرآن، حيث حظي كل مفسر بتحقيق رغبته في الوصول إلى أبعد حد انتهى إليه اجتهاده"[11]، ومما سبق تظهر أن الاهتمام باللغة العربية يرجع إلى:

- أن الكتاب والسنة عربيان: فالله أنزل القرآن بلغة العرب الفصيحة، قال تعالى: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 195]، والرسول صلى الله عليه وسلم نزل عليه القرآن، وفسره بقوله وعمله وبينه بسيرته من أصل العرب وخلصهم.
- أن معاني كتاب الله موافقة لمعاني كلام العرب، وظاهره ملائم لظاهر كلام العرب.
- إذا علم ذلك فإن فهم مراد الله ورسوله متوقف على فهم لغة العرب ومعرفة علومها.[12]

3. طبيعة العلاقة بين علمي التفسير والنحو عند المفسرين

إن تفشي اللحن بين المسلمين في بدايات الفتوح الإسلامي الكبير جر على القرآن الكريم آفات كبيرة، وأبصر علماء ذلك الوقت مآسي حقيقة لما آلت إليه لغة القرآن من الإهمال، الأمر الذي أدى إلى ظهور فجر جديد، وفصل آخر، يزاح فيه الستار عن علوم النحو، جاء في كتاب الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي أن من أسباب ظهور النحو حادثة حصلت في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ يروي بسنده أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر ألا يقرئ الناس إلا عالم باللغة وأمر أبا الأسود فوضع النحو[13]، وفي رواية أخرى أدق عن غيره جاء فيها أن أبا الأسود الدؤلي قال: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء -يعني الأعاجم- فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه، ويعتمدون عليه؛ ثم ألقى إليّ الرقعة، وفيها مكتوب: «الكلام كله اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبئ به، والحرف ما جاء لمعنى»، وقال لي: «انحُ هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك، واعلم يا أبا الأسود أن الاسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، واسمٌ لا ظاهر ولا مضمر؛ وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهرٍ ولا مضمر« وأراد بذلك الاسم المبهم».[14] والاختلاف في اختيار من كان سببا في نشأة النحو " لا يعدو في الواقع أن يكون إما للإمام عليّ كرّم الله وجهه، كما يرى ابن الأنباري والقفطي، أو لأبي الأسود الدؤلي رضي الله عنه، كما يرى السابقون قبلهما"[15]

إن جلّ الدراسات التي تكلمت عن نشأة النحو تربط نشأته بالقرآن الكريم وخشية الخطأ في قراءته، ولأن حماية القرآن تبدأ أولا بحماية لغته، بل إن إجماع المؤرخين[16] قديما وحديثا على أن الدافع الرئيس لهذه النشأة إنما هو قراءة القرآن على نحو صحيح، وتفشي اللحن لدى الخاصة والعامة، فاتفاق على النشأة يدل على أن الهدف الأسمى من وضع النحو هو حماية القرآن الكريم من أي محظور يكون سببا في فشو اللحن والخطأ، وعلى هذا الأساس درج علماء التفسير في كتبهم على بيان علاقة النحو بالقرآن الكريم ووجوه عنايتهم به، وسعوا إلى تجريم اللحن في القرآن الكريم أولا، وذمه في ألسن الناس عامة، وصار السبق إلى تصحيح اللسان غاية الفصحاء من العرب كما جاء عن الحجاج أنه قال لابن يعمر[17]: أَتَسْمَعُنِي ألحنُ على المنبر؟ قال: الأمير أفصح من ذلك. فألحَّ عليه، فقال: حرفًا. قال: أيًّا؟ قال: في القرآن. قال الحجاج: ذلك أشنع له، فما هو؟! قال: تقول: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ} إلى قوله عز وجل: {أَحَبَّ}، فتقرأها: "أَحَبُّ" بالرفع، والوجه أن تُقرأ بالنصب على خبر كان. قال: لا جرم! لا تسمع لي لحنًا أبدًا[18]، وما هذا إلا دليل على شناعة اللحن والخطأ في الكلام عامة، في القرآن خاصة، لتنطلق من بعدها مراحل التأسيس لهذا الفن، من أجل ربطه بالقرآن الكريم " فكان أولَ مَن أصَّل ذلك وأعمل فكره فيه، أبو الأسود ظالم بن عمرو الدُّؤليُّ، ونصر بن عاصم،

وعبد الرحمن بن هُرْمز. فوضعوا للنحو أبوابًا، وأصَّلوا له أصولًا؛ فذكروا عوامل الرَّفْع والنصب والخفض والجزم، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف"[19].

4. علماء التفسير وتطبيق قواعد النحو

ومن النماذج التي تبين اهتمام المفسرين بالنحو في كتبهم، ما زخرت به المكتبات العربية من الأعمال والدراسات التي تعنى بإبراز الجانب النحوي للقرآن الكريم، خاصة منها المصنفة ضمن كتب التفسير، والملاحظ أن التفسير ذا المنحى النحوي يقل عندما يعتمد المفسر على المأثور في تفسير القرآن، وبعضها يعتبر التفسير فيها "بمثابة الرواية المنقولة عن المتخصصين فيها، فهم يعتمدون في ذلك على أقوال السابقين من أئمة النحو، ولا يعتبرون هم أنفسهم من النحويين الذين تغلب عليهم هذه الصناعة أو يشتهرون بها"[20]، ولعلنا نورد بعض ما جاء عن المفسرين في إيرادهم لبعض القضايا، فابن جني -مثلا –يضع بابا في كتابه (الخصائص) سماه: بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى، وكتابه من أقدم الدراسات التي تعنى بنحو القرآن، "وفي هذا الباب يضع ابن جني النقاط على الحروف حتى لا تكون هناك فجوة بين النحو والتفسير"[21]، ومن أمثلة ما يورده ابن جني قوله: "وجواب الشرط على ضربين الفعل والفاء فإذا كان الجواب فعلا كان مجزوما على ما تقدم نحو قولك إن تذهب أذهب معك وأما الفاء فيرتفع الفعل بعدها نحو قول الله تعالى {وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ } [المائدة: 95] وقال تعالى{ { فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا} [الجن: 13] وإنما جيء بالفاء في جواب الشرط توصلا إلى المجازاة بالجملة المركبة من المبتدأ والخبر."[22]، وقال في موضع آخر في باب المفعول له: "اعلم أن المفعول له لا يكون إلا مصدرا ويكون العامل فيه فعلا من غير لفظه وإنما يذكر المفعول له لأنه عذر وعلة لوقوع الفعل تقول زرتك طمعا في برك وقصدتك ابتغاء لمرضاتك أي زرتك للطمع وقصدتك للابتغاء قال الله عز وجل { يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ } [البقرة: 19] أي لحذر الموت"[23]

وقال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: { يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً} [النبأ: 40] "(مَرْءُ) هو الكافر لقوله تعالى: {إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً} [النبأ: 40] والكافر: ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم، ويعنى اقَدَّمَتْ يَداهُ من الشر، كقوله: {وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ} [الحج: 22،23]، {وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ} [الحج: 10]،{ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [البقرة: 95] و «ما» يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بـ(قدّمت)، أي ينظر أي شيء قدّمت يداه، وموصولة منصوبة بـ(ينظر)، يقال: نظرته بمعنى نظرت إليه، والراجع من الصلة محذوف"[24]، وقال في موضع آخر من كتابه في بيان وجه إعرابي عند قوله تعالى: { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [الأعراف:69] "فإن قلت: «إذ» في قوله إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ ما وجه انتصابه؟ قلت: هو

مفعول به وليس بظرف، أي اذكروا وقت استخلافكم."[25] وكتابه الكشاف يعد مؤلفا ضخما حوى العديد من المسائل النحوية، ويعتمد في ترجيحه على منهجه اختاره لنفسه، وفي بعضه انتقده عليها بعض العلماء. " وقد أهله لهذه المكانة الكبيرة في تاريخ النحو والتفسير، كونه من النحويين الكبار والأدباء الممتازين والمفسرين المشار إليهم بالبنان، إذ قيل فيه: كان إماما في التفسير واللغة والأدب، فهو –في الحق- ذو عقل جبار وفكر ثاقب وعلم واسع، وعمله في ميدان النحو، لا يقل عما أضافه في ميدان التفسير بتآليفه"[26]

وعند ابن عطية في تفسير قوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ} [المائدة: 82] " اللام في قوله(لَتَجِدَنَّ) لام الابتداء، وقال الزجّاج هي لام قسم، ودخلت هذه النون الثقيلة لتفصل بين الحال والاستقبال"[27]، وفي باب الابتداء بالنكرة قال في قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} [القيامة: 22] "(وُجُوهٌ) رفع بالابتداء وابتداء بالنكرة لأنها تخصصت بقوله(يَوْمَئِذٍ) و(ناضِرَةٌ) خبر (وُجُوهٌ)."[28]، وفي باب جواز حذف جواب الشرط يقول ابن عطية في قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ }[الأنعام: 35] : "وحذف جواب الشرط قبل في قوله فَإِنِ اسْتَطَعْتَ إيجاز لفهم السامع به، تقديره فافعل أو فدونك كما تقدم"[29]، وبيان جواز تكرار المعنى قال موضحا عند قوله تعالى: { إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [النحل: 105]: "وكرر المعنى في قوله: وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ لفائدة إيقاع الصفة بالكذب عليهم إذ الصفة بالشيء أبلغ من الخبر به، لأن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضه الخبر فبدأ في هذه الآية بالخبر، ثم أكد بالصفة"[30] وتفسير ابن عطية من التفاسير التي زخرت بالمباحث اللغوية والنحوية، لأن تفسيره مستمد من مصادر كثيرة في اللغة والنحو، وهو من التي اهتم مفسروها "بالبحوث النحوية، إذ تعتبر هذه البحوث بمثابة الرواية المنقولة عن المتخصصين فيها، فهم يعتمدون في ذلك على أقوال السابقين من أئمة النحو، ولا يعتبرون أنفسهم من النحويين الذي تغلب عليهم هذه الصناعة أو يشتهرون بها..."[31].

وبعض المفسرين النحويين فضل التعليق على أنواع من وجوه الإعراب في القرآن الكريم، ومثل هذا نجده عند أبي حيان في تفسيره "البحر المحيط"، إذ علق في رد جواز أن يكون الاختصاص بأسماء الإشارة عند قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة: 85] فقال: "وذهب ابن كيسان وغيره إلى أن (أنتم) مبتدأ، و(يقتلون) الخبر، و(هؤلاء) تخصيص للمخاطبين، لما نبهوا على الحال التي هم عليها مقيمون، فيكون إذ ذاك منصوبا بـ(أعني)، وقد نص النحويون على أن التخصيص لا يكون بالنكرات، ولا بأسماء الإشارة."[32] وقد أكثر أبو حيان من إيراد وجوه الإعراب والرد عليها، وتوجيهها توجيها يناسب قواعد اللغة والنحو، مما تعارفت عليه المدارس النحوية، والمطلع على تفسير يدرك توسعه البالغ، تبحره في علوم النحو، فصار بحق "قمة كتب

التفسير التي عنيت بالنحو وتوسعت في الإعراب ورواية القراءات وتوجيهها والاحتجاج لها والدفاع عنها، لأمرين: الأول، إمامة مؤلفه في الصرف والنحو وبلوغه فيهما مبلغا منقطع النظير [...]، الثاني: منهج (البحر المحيط) الشامل الفريد بين كتب التفسير –كما وكيفا- فهو توسع في الإعراب والتطبيقات النحوية والقراءات وتوجيهها توسعا لا يدانيه تفسير آخر..."[33]

5. أوجه عناية المفسرين بالجانب الصرفي للقرآن الكريم:

تحتل الدراسات الصرفية من تفاسير القرآن الكريم حيزا معتبرا، لأنها تتعلق ببنى الألفاظ العربية وما يجري منها مجرى المعيار والميزان، وأولوها اهتماماً بارزاً، يقول سيبويه: "هذا باب ما بنت العرب من الأسماء والصفات والأفعال غير المعتلة، والمعتلة، وما قيس من المعتل الذي لا يتكلمون به، ولم يجئ في كلامهم إلا نظير من غير بابه، وهو الذي يسميه النحويون: التصريف والفعل"[34]، وحاجة العلماء إلى هذا العلم كبيرة جدا، قال ابن جني: "يحتاج إليه أهل العربية أتم حاجة، وبهم إليه أشد فاقة؛ لأنه ميزان العربية وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به، وقد يؤخذ جزء من اللغة كبير بالقياس ولا يوصل إلى ذلك إلا من طريق التصريف"[35]، وعلم الصرف هو قسيم النحو في الدراسات اللغوية، واهتمام علماء التفسير به نابع أيضا من اهتمامهم باللغة العربية أصلا، لذلك حوت كتب التفسير على كمّ كبير من المسائل الصرفية، عمد فيها المفسرون النحويون إلى إبراز جوانب صياغة المفردة القرآنية، مما له علاقة ببنية الكلمة، وتمييز حروفها الأصلية، وما يلحقها من زيادة وإعلال، وقلب وإبدال...إلخ، واجتهدوا في تخريجها بما يناسبها من مباحث علم الصرف الواسعة، فظهر لدينا تنوع معرفي قلّ نظيره، خدمة للقرآن الكريم، فصار علم الصرف من العلوم المهمة للمفسر، لأنه يكشف له أوجه التفسير ومعاني الكلمات، كما أن به يعرف خطأ بعض الآراء التفسيرية ويعللها، ويعينه على معرفة التخريج اللغوي لكثير من أقوال السلف في التفسير.

وسأقدم أمثلة عن أقوال بعض المفسرين في كتبهم، مما يندرج تحت علم الصرف، قال ابن عطية في تفسيره عند قول الله تعالى: { وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ}[يوسف: 30]: ذكر الفعل المسند إلى «النسوة» لتذكير اسم الجمع ونِسْوَةٌ جمع قلة لا واحد له من لفظه، وجمع التكثير نساء، ونِسْوَةٌ فعلة، وهو أحد الأبنية الأربعة التي هي لأدنى العدد، وقد نظمها القائل ببيت شعر: [البسيط]

بأفعل وبأفعال وأفعلة ... وفعلة يعرف الأدنى من العدد"[36]

وقال عند قوله تعالى: {وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ} [الأعراف: 10]: وقرأ الجمهور «معايش» بكسر الياء دون همز، وقرأ الأعرج وغيره «معائش» بالهمز كمدائن وسفائن... فمن قرأ «معايش» بتصحيح الياء فهو الأصوب لأنها جمع معيشة وزنها مفعلة...فالياء في معيشة أصلية وأعلت معيشة لموافقتها الفعل الذي هو يعيش في الياء أي في المتحرك والساكن، وصححت «معايش» في جمع التكسير لزوال الموافقة المذكورة في اللفظ ولأن التكسير معنى لا يكون في الفعل إنما تختص به الأسماء.."[37].

ومن المفسرين المكثرين من إيراد المسائل الصرفية أيضا الطاهر بن عاشور في تفسير التحرير والتنوير، قال عند قوله تعالى: { وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا }[البقرة: 231] والْهُزُءُ بضمتين مصدر هزأ به إذا سخر ولعب، وهو هنا مصدر بمعنى اسم المفعول، أي لا تتخذوها مستهزأ به.."[38]، وقال عند قوله تعالى: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ} [فصلت: 16] "وأخزى: اسم تفضيل جرى على غير قياس، وقياسه أن يقال: أشد إخزاء، لأنه لا يقال: خزاه، بمعنى أخزاه، أي أهانه، ومثل هذا في صوغ اسم التفضيل كثير في الاستعمال."[39] وقد توسع -رحمه الله- في إظهار المسائل الصرفية ورد بعض الأقوال التي تخالف المقاييس الصرفية المتفق عليها، وتوجيهها توجيها مناسبا.

ونجد من بين التفاسير التي لها اهتمام بالغ بالدراسات اللغوية، تفسير الدر المصون للسمين الحلبي، فهو أيضا كتاب زاخر بالمباحث الصرفية على تنوعها، وبل إنه استفاد ممن سبقه في هذا المجال، فراح يعرض أقوالهم، يزكيها وينتقدها ويعلل أخطاءها، وينظر في مصادر الأقوال ويرجح منها ما وافق الدليل، فأخرج لنا مؤلفا ضخما يعتبر من ركائز التفاسير اللغوية، ومن أمثلة ما يورده ما قاله في تفسير قوله تعالى: { غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[البقرة:285] "والمصير: اسمُ مصدرٍ مِنْ صارَ يصير أي: رَجَعَ، وقد تقدَّم لك في قوله: {المحيض} [البقرة: 222] أنَّ في المَفْعِل من الفعلِ المعتلّ العينِ بالياءِ ثلاثةَ مذاهبَ وهي: جريانُه مَجْرَى الصحيح، فيُبْنى اسمُ المصدرِ منه على مَفْعَل بالفتح..."[40]، وقال عند قوله تعالى: { لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [الأعراف: 41] "وغَواشٍ: جمع غاشية. وللنحاة في الجمع الذي على مفاعل إذا كان منقوصاً بقياسٍ خلافٌ: هل هو منصرف أو غير منصرف؟ فبعضهم قال: هو منصرفٌ لأنه قد زال [منه] صيغة منتهى الجموع فصار وزنُه وزن جَناح وقَذَال فانصرف. وقال الجمهور: هو ممنوع من الصرف، والتنوينُ تنوينُ عوض."[41]

6. خاتمة

وفي الأخير نستطيع أن نقول بإن الناظر في كتب التفسير يجد أن أصحابها قد اهتموا ببيان القضايا النحوية والصرفية في القرآن الكريم، وكما مر معنا في هذا البحث فقد برز لذلك علماء خصصوا تفسيرهم بعرض القضايا اللغوية حتى صار منهج الكتاب في التفسير يتخذ من الدراسات اللغوية نبراسا له، وصارت لهؤلاء

العلماء جهودا لا تنكر، اهتموا من خلالها بالقرآن الكريم، مستخرجين دره ومكنوناته، وعلى مر الزمن أصبحت البناء اللغوي ركيزة مهمة لا يستغني عنها المفسر، إذ صار لزاما على مهتم بالتفسير أن يرقى بنفسه في مجال الدراسات اللغوية لكي يتمكن من فهم تطبيقات علماء هذا العلم في تفسيرهم للقرآن الكريم.

ومن خلال بحثنا هذا نلخص أهم النتائج التي تم التوصل إليها:

- تمتاز اللغة العربية بأن لها القدرة على التعبير بأجمل الأساليب، الأمر الذي جعلها مصطفاة لتكون لغة القرآن الكريم.
- يعد تفشي اللحن في القرآن الكريم من أسباب ظهور النحو.
- اللغة العربية أداة من أدوات المفسر، التي ينبغي الاعتناء بكل مباحثها، وضرورة التفقه بلغة العرب قبل الشروع في تفسير آي القرآن الكريم.
- سعى علماء التفسير اللغويون إلى تخريج قواعد النحو والصرف، تخريجا يليق بقداسة القرآن الكريم، وأولوها اهتماما بالغة خدمة له، وسعيا في نيل الأجر.
- علم الصرف علم مهم جدا للمفسر لأنه يفيد في: معرفة أوجه المعاني التي تتصرّف بها الكلمة، ومعرفة التخريج اللغوي لكثير من أقوال السلف، وأنه يكشف عن علل بعض الأقوال الخاطئة في التفسير.

ومن أهم التوصيات التي توصل إليها الباحث ما يلي:

- أوصي الطلاب الأكاديميين بالاهتمام أكثر باستخراج التطبيقات الصرفية والنحوية المعروضة في كتب التفسير، لما لها من أهمية بالغة.
- أوصي أيضا بالاهتمام بالشواهد الصرفية والنحوية التي اشتمل عليها القرآن الكريم، خاصة بعد التنظير اللغوي، حتى يصبح الشاهد القرآني أدل على القاعدة اللغوية.

هذا والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

7. المصادر والمراجع:

1. الاتجاهات اللغوية والبلاغية في التفسير، محي الدين بلتاجي، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة - جامعة قطر، 1988.
2. أثر المعاني اللغوية في توجيه دلالات النصوص من خلال آيات الأحكام في القرآن الكريم-آيات الصلاة نموذجا-، زين الدين بن موسى، بي.آ للطباعة، قسنطينة، الجزائر، ط:1، 2016م.
3. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار المنار، القاهرة، ط: 1، 1997م.
4. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت.

5. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: 1984 م
6. التفسير اللغوي للقرآن الكريم عند ابن جني، رسالة ماجستير، أحمد محسن خلف، إشراف: ميثم محمد علي الموسوي، قسم اللغة العربية، كلية التربية جامعة المستنصرية، العراق، 1436هـ/2014م
7. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة 1، 1420 هـ - 2000 م.
8. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، ت: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، الرياض، ط: الأولى 2006م.ج1.
9. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، ت: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
10. الصاحبي في فقه اللغة، أحمد ابن فارس، ت: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة- مصر، 1977م.
11. طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط:2
12. القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، عبد العال سالم مكرم، مؤسسة علي جراح الصباح، ط: الثانية، 1978.
13. الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط:3، 140 هـ - 1988م.
14. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي - بيروت، ط: الثالثة - 140 هـ
15. اللغة العربية مكانتها العلمية في فهم القرآن وتفسيره، طاهر محمود محمد يعقوب، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور-باكستان، العدد 23، 2016م.
16. اللمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني، ت: فائز فارس، دار الكتب الثقافية – الكويت.
17. مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط:3، 1421هـ- 200م.
18. مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، ت: محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجي - القاهرة، 1381 هـ
19. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن عطية، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الأولى - 1422 هـ
20. مقدمة في علم التفسير، تقي الدين أحمد بن تيمية، دار ابن حزم بيروت -لبنان، ط: 1، 1414هـ/1994م.
21. مقدمتان في علوم القرآن، آرثر جفري، مكتبة الخانجي القاهرة-مصر، 1954م.
22. المنصف، أبو الفتح عثمان بن جني، دار إحياء التراث القديم، ط:1، 1373هـ/1954م.
23. النحو وكتب التفسير، إبراهيم عبد الله رفيده، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع -ليبيا، ط: الثالثة، 1990م.
24. نزهة الألباء في طبقات الأدباء، كمال الدين بن الأنباري، ت: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار الأردن، الطبعة:3، 1405هـ/1985م.
25. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، محمد علي الطنطاوي، دار المعارف، ط:2.

8. الهوامش

[1] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار المنار، القاهرة، ط:1، 1997م، ص 129- 130.

[2] التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: 1984 م ، ج:1، ص: 39.

[3] مقدمة في علم التفسير، تقي الدين أحمد بن تيمية، دار ابن حزم بيروت -لبنان، ط: 1، 1414هـ/1994م، ص: 54.

[4] الاتجاهات اللغوية والبلاغية في التفسير محي الدين بلتاجي، ، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة - جامعة قطر، 1988، ص: 77.

[5] مقدمتان في علوم القرآن، آرثر جفري، مكتبة الخانجي القاهرة-مصر، 1954م، ص: 201.

[6] البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد الزركشي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط: 1، 1376هـ - 1957م، ج: 1، ص: 292.

[7] مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط:3، 1421هـ- 2000م، ص: 341.

[8] الصاحبي في فقه اللغة، أحمد ابن فارس، ت: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة- مصر، 1977م، ص: 50.

[9] جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة 1، 1420 هـ - 2000 م، ج:1، ص: 75.

[10] مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، ت: محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجى - القاهرة، 1381 هـ، ج:1، ص: 8.

[11] أثر المعاني اللغوية في توجيه دلالات النصوص من خلال آيات الأحكام في القرآن الكريم-آيات الصلاة نموذجا-، زين الدين بن موسى، بي.آ للطباعة، قسنطينة، الجزائر، ط:1، 2016م، ص 11.

[12] اللغة العربية مكانتها العلمية في فهم القرآن وتفسيره، طاهر محمود محمد يعقوب، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور-باكستان، العدد 23، 2016م، ص: 51.

[13] الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، ت: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، الرياض، ط: 1، 2006م. ج1، ص43.

[14] نزهة الألباء في طبقات الأدباء، كمال الدين بن الأنباري، ت: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار الأردن، الطبعة:3، 1405هـ/1985م. ص 19-20.

[15] نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، محمد علي الطنطاوي، دار المعارف، ط: 2. ص 23.

[16] ينظر: النحو وكتب التفسير، إبراهيم عبد الله رفيده، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع -ليبيا، ط: 3، 1990م، ج:1، ص:33.

[17] يحيى بن يعمر أبو سليمان العدواني البصري، الفقيه العلامة المقرئ، كان تابعيا لقي عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم وغيرهما، نشأ بخرسان وولي القضاء بمرو، كان من أوعية العلم وحملة الحجة، توفي قبل 90هـ

[18] طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط: 2، ص: 28.

[19] المرجع نفسه، ص: 12

[20] النحو وكتب التفسير، إبراهيم عبد الله رفيده، ج:2، ص: 751-752.

[21] القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، عبد العال سالم مكرم، مؤسسة علي جراح الصباح، ط: 2، 1978، ص: 220

[22] اللمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني، ت: فائز فارس، دار الكتب الثقافية - الكويت، ص: 134

[23] المرجع نفسه، ص: 58

[24] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي - بيروت، ط: 3 - 1407 هـ، ج4، ص: 691.

[25] المرجع نفسه: ج:2، ص: 116.

[26] النحو وكتب التفسير، إبراهيم عبد الله رفيده، ج:1، ص: 682.

[27] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن عطية، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: 1 - 1422 هـ، ج:2، ص: 225.

[28] المرجع نفسه: ج:5، ص: 405.

[29] المرجع نفسه: ج:2، ص: 288.

[30] المرجع نفسه: ج:3، ص: 422.

[31] النحو وكتب التفسير، إبراهيم عبد الله رفيده، ج: 2، ص: 751-752. –بتصرف يسير-

[32] البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ج:1، ص: 452.

[33] النحو وكتب التفسير، إبراهيم عبد الله رفيده، ج: 2، ص: 907-908.

[34] الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط:3، 1408 هـ - 1988 م، ج: 4، ص: 242

[35] المنصف، أبو الفتح عثمان بن جني، دار إحياء التراث القديم، ط:1، 1373هـ/1954م، ص: 2.

[36] المحرر الوجيز، أبو محمد عبد الحق ابن عطية، ج: 3، ص: 237.

[37] المرجع نفسه، ج: 2، ص: 377.

[38] التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج:2، ص: 424.

[39] المرجع نفسه: ج:24، ص: 261.

[40] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، ت: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج: 2، ص: 697

[41] المرجع نفسه، ج:5، ص: 322.